

كنقيض للآخر وعرف ذاته نفيا : أنا كل ما لا ينتمي اليه الآخر طالما يقف على أرضي .

لم يكن الصراع طوليا ، عرف السوط والدم والمدفعية وممر بالتخيلات والاساطير والانتروبولوجيا العنصرية أيضا . فاستعادت الذاكرة الافرو - آسيوية « الوجه الابيض » واطنقته رديفا للشر وبرودة الروح وقتامة الحيوانية ، فهو « شارب الدم » وحليف الارواح الدنسة وحليف ابليس وعدو الرحمن . وأمسكت الايدولوجيا الكولونيالية انسان الصحراء والغابات والمعابد الشرقية ، فوحدت الاول مع الجمل والثاني مع القرد والثالث مع الشيطان ، اصبح الانسان الصيني شرا مرجوما ، وامسى الانسان الاسود « الزنجي » نظيرا لليل وعدوا لإله سيح ، وكما أنتجت الذاكرة الكولونيالية اسطورة الاله الابيض أنتجت أيضا أسطورة الشيطان الاسود ، واصبح البولوني « الطيب » ينعت الانسان السويدي « السيء » بـ « هذا السويدي الاسود » ثم يعمم القول فيصبح : « اسود مثل السويدي » (٢) .

دار الصراع في شرطه التاريخي : الشرط الاستعماري المحدد اقتصاديا بالتهب وسياسيا بالقمع وايدولوجيا بالعنصرية ، واستمر في وحدته التناقضية القائمة على ثنائية المستعمر / (٣) . كل ينفي الآخر بأسلحة لا متكافئة في دياكتيك يستدعي وجود الطرفين : وجود المستعمر (فتح الميم) في يؤسسه المستمر ضرورة ، شرط أساسي لوجود المستعمر (كسر الميم) في نعيمه المستمر . لكن البؤس لا يعايش الرخاء الا مكبلا وفي شروط تنتج القمع وتعيد انتاجه أبدا . وفي تعايش نسيجه القمع ولحمته النهب تطور النقيضان على ارضية الشرط الاستعماري ، وعندما نقول شرطا استعماريًا نقول عملية صراعية تهدم النقيضين وتخلقهما في الموقت ذاته ، يتمركز كل منهما حول ذاته وصفاته ثم يخرج محاولا استئصال الآخر وازالته وتدميره ، يصل المستعمر والمستعمر الى عالم حدوده الملرن والمناجم والقمع ، يأخذ التمايز صفة الاطلاق، وينسحب المستعمر الى « أوروبيته المركزية » والآسيوي الى « آسيويته » والافريقي الى « كهفه » التاريخي الخاص .

لا تستند هذه المواجهة التدميرية الى اعتبارات نفسية او اختلافات ايدولوجية او لاهوتية بل الى أساس مادي محكوم بالتهب والتدمير والقمع ، مارسه ويمارسه الغزاة الامبرياليون في « العالم الثالث » لذلك ينبغي التمييز بين النضال الوطني التحرري الذي يعمل لتحرير ارض وحماية ثقافة وصيانة ثروات وطنية وبين مركب كره الغرباء Xenophobia ، فنحن لسنا في مجال « عنصرية تطرد اخرى » كما يذهب بعض المستشرقين الاستعماريين بل في مجال الاستعمار وحركات التحرر الوطني (٤) .